بُنَاة دَولَةِ الإسْلام

- ٩ -

محمد بن مَسلمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ، وَٱلصَّلاةُ وَٱلسَّلاَمُ عَلَىٰ سَيِّدِ ٱلْمُرْسَلِينَ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ نَهجَ مَنْهَجَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ أَبَا عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ ٱبْنِ خَالِدٍ كَانَ مِنْ أُولٰئِكَ ٱلأَنْصَار مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ بِٱلإِيمَانِ فَنَصَرُوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَنَصَرَهُمُ ٱللهُ وَأَعَزَّهُمْ، وَكَانَ يَوْمَ هَاجَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ فِي ٱلْخَامِسَةِ وَٱلثَّلاثِينَ مِنَ ٱلْعُمُرِ، أَيْ أَصْغَرَ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ بِثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَفِي سِنِّ ٱلنُّضْجِ، فَأَسْلَمَ عَنْ عَقِيدَةٍ وَيَقِينٍ، وَبَذَلَ كُلَّ مَا فِي طَاقَتِهِ لِنُصْرَةِ هٰذَا ٱلدِّينِ، وَعَمِلَ بِكُلِّ إِمْكَانَاتِهِ لِرَفْعِ رَايَةِ ٱلإِسْلاَمِ.

كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ مِنَ ٱلأَوْسِ وَهُمُ ٱلأَقَلُّ عَدَداً مِنْ إِخْوَانِهِمُ ٱلْخَزْرَجِ، وَلٰكِنْ لَيْسَتِ ٱلْقُوَّةُ بِٱلأَعْدَادِ، وَلَيْسَتِ ٱلْجُيُوشُ بِٱلْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا ٱلْقَضَايَا كُلُّهَا بِٱلإِيمَانِ وَٱرْتِفَاعِ

ٱلْمَعْنَوِيَّاتِ، وَيَبْدُو أَنَّ ٱلرِّجَالَ ٱلأَكْثَرَ جِهَاداً كَانُوا بَيْنَ ٱلأَوْسِ ، وَكَذٰلِكَ ٱلأَبْطَالُ ٱلأَكْثَرُ تَضْحِيَةً كَانَتْ بَيْنَهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ بَيْنَ أَشِقَّائِهِمُ ٱلْخَزْرَجِ ، وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ سَيِّدُ ٱلأَوْسِ هُوَ سَيِّدُ ٱلأَنْصَارِ جَمِيعاً ، كَمَا أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ، وَعَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ، وَمُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ وَهُمْ مِنْ كِبَارِ ٱلصَّحَابَةِ مِنَ ٱلأَنْصَارِ أَمْثَالِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، وَسَعْدِ بْنِ ٱلرَّبِيعِ ، وَأَبِي دُجَانَةَ ، وَعَبْدِ ٱللهِ بْنِ رَوَاحَةَ، وَٱلْحَبَابِ ٱبْنِ ٱلْمُنْذِرِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْخَزْرَجِ .

كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ مِنْ بَنِي حَارِثَةَ بْنِ ٱلْحَارِثِ، وَهُمْ حُلَفَاءُ بَنِي عُبَيْدٍ أَحَدِ بُطُونِ ٱلأَوْسِ ، وَلَيْسَ مَعْنَى ٱلْحَلِيفِ ـ كَمَا يَتَوَهَّمُ بَعْضُهُمْ ـ أَقَلَّ رُتْبَةً أَوْ أَضْعَفَ شَأْناً مِنْ بَقِيَّةِ ٱلْبُطُونِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَٱلْقَبَائِلِ ٱلْمَعْرُوفَةِ، وَإِنَّمَا عَلَىٰ مُسْتَوَىٰ حَلِيفِهِ نَفْسِهِ، تَحَالَفَ مَعَ نِدٍّ لَهُ لِظُرُوفٍ أَحَاطَتْ بِهِ أَوْ لأَسْبَابٍ طَرَأَتْ عَلَىٰ وَضْعِهِ، ومُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ أَحَدُ هٰؤُلاَءِ ٱلْحُلَفَاءِ لِبَنِي عُبَيْدٍ، وَعَلَىٰ مُسْتَوَىٰ رِجَالاَتِهِمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ شُهْرَةً وَأَعْلاَهُمْ رُتْبَةً .

لَمْ تَكُنِ ٱلْعَرَبُ لِتُسَمِّيَ مُحَمَّداً قَبْلَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ إِلاَّ نَادِراً ، وَلَعَلَّهُ لا يُعْرَفُ غَيْرُ ٱسْمِ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ فِي مِثْلِ

سِنِّهِ ٱلَّتِي لَمْ تَكُنْ لِتَتَجَاوَزَ ٱلْخَامِسَةَ وَٱلثَّلاَثِينَ قَبْلَ هِجْرَةِ ٱلْمُصْطَفَىٰ عَلَيهِ أَفْضَلُ ٱلصَّلاَةِ وَٱلسَّلاَمِ .

لَمْ يَكُنْ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ لِيَطْلُبَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ طَلَباً إِلاّ وَيَكُونُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ـ إِنْ كَانَ حَاضِراً ـ أَوَّلَ مَنْ يَسْتَعِدُّ لِتَلْبِيَةِ طَلَبِ رَسُولِهِ ٱلْكَرِيمِ وَتَحْقِيقِ رَغْبَتِهِ عَلَىٰ ٱلْفَوْرِ.

شَهِدَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ بَدْراً وَكَانَ مِنْ أَبْطَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ فِيهَا. وَكَانَ لِهَزِيمَةِ قُرَيْشٍ وَمَقْتَلِ زُعَمَائِهَا ٱلأَثَرُ السَّيِّءُ فِي نُفُوسِ ٱلْيَهُودِ ٱلْذِينَ شَعَرُوا بِقُوَّةِ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ يَحْقِدُونَ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ فَوْقَهُمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ لَهُ ٱلضَّعْفَ وَٱلذُّلَّ حَتَّىٰ يَتَمَكَّنُوا مِنَ ٱلسَّيْطَرَةِ عَلَيْهِ، وَٱبْتِزَازِ مَالِهِ، وَٱمْتِصَاصِ دَمِهِ، لِذَا قَالَ أَحَدُ زُعَمَائِهِمْ، وَهُوَ كَعْبُ بْنُ ٱلأَشْرَفِ عِنْدَمَا وَصَلَ إِلَيْهِ نَبَأُ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ: لَئِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ أَصَابَ هٰؤُلاَءِ ٱلْقَوْمَ لَبَطْنُ ٱلأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ ظَهْرِهَا، فَلَمَّا تَيَقَّنَ عَدُوُّ ٱللهِ ٱلْخَبَرَ ٱنْتَقَلَ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَبَدَأَ يُحَرِّضُ عَلَىٰ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ، وَيَبْكِي قَتْلَىٰ بَدْرٍ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ـ وَكَانَ شَاعِراً ـ. وَلَمَّا تَمَّ لَهُ مَا أَرَادَ مِنَ ٱلتَّحْرِيضِ وَإِثَارَةِ ٱلْحِقْدِ رَجَعَ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ وَصَارَ يُشَبِّبُ بِنِسَاءِ ٱلْمُسْلِمِينَ حَتَّىٰ آذَاهُمْ...

فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ: مَنْ لِي بِٱبْنِ ٱلأَشْرَفِ؟.

فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: أَنَا لَكَ بِهِ يَا رَسُولَ ٱللهِ، أَنَا أَقْتُلُهُ.

فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ: فَٱفْعَلْ إِنْ قَدَرْتَ عَلَىٰ ذٰلِكَ.

وَمَكَثَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ عِدَّةَ أَيَّامٍ فِي ٱلْبَيْتِ لاَ يَتَنَاوَلُ ٱلطَّعَامَ، وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي ٱلْمَوْضُوعِ، وَيَخْشَى أَلاَّ يَسْتَطِيعَ أَنْ يُحَقِّقَ مَا وَعَدَ بِهِ، وعَلِمَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ الخَبَرَ فَسَأَلَ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ عَنْ عَدَمِ تَنَاوُلِهِ ٱلطَّعَامَ، فَأَخْبَرَهُ مَا بِهِ، فَدَعَا لَهُ، وَطَلَبَ مِنْهُ ٱلْعَمَلَ. أَخَذَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ جَمَاعَةً مِنَ ٱلأَوْسِ مِنْ بَنِي عَبْدِ ٱلأَشْهَلِ مِنْهُمْ أَبُو نَائِلَةَ، وَهُوَ أَخٌ لِكَعْبِ ابْنِ ٱلأَشْرَفِ فِي ٱلرَّضَاعَةِ، وَٱنْطَلَقَ ٱلْجَمْعُ إِلَىٰ حِصْنِ كَعْبٍ، وَنَادَاهُ أَبُو نَائِلَةَ، وَحَدَّثَهُ وَحْدَهُ فِي شِرَاءِ بَعْضِ ٱلْمَوَادِ مِنْهُ دَيْناً هُوَ وَأَصْدِقَاءُ لَهُ، وَسَالَ لُعَابُ ٱلْيَهُودِيِّ عَلَىٰ ٱلرِّبْحِ، وَٱسْتَشْعَرَ بِرَنِينِ ٱلْمَالِ بَيْنَ يَدَيْهِ كَعَادَةِ يَهُودَ دَائِماً وَفِي كُلِّ وَقْتٍ، وَوَافَقَ مُقَابِلَ رَهَائِنَ يُقَدِّمُونَهَا لَهُ، وَطَلَبَ أَنْ يَأْتِيَ لَهُ بِأَصْدِقَائِهِ، فَعَادَ وَجَاءَ بِهِمْ إِلَيْهِ، وَخَرَجَ كَعْبُ بْنُ ٱلأَشْرَفِ مِنْ

حِصْنِه لِلالْتِقَاءِ بِهِمْ عَلَىٰ ٱلرَّغْمِ مِنْ أَنَّ ٱلْوَقْتَ كَانَ لَيْلاً، وَفِي سَاعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنْهُ، وَٱلْيَهُودُ يَخْشَوْنَ ٱلْخُرُوجَ لَيْلاً، إلاَّ أَنَّ حُبَّ ٱلْمَالِ وَٱلطَّمَعَ فِي ٱلأَرْبَاحِ قَدْ أَخْرَجَهُ وَغَطَّىٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ. وَعَلَىٰ ٱلرَّغْمِ مِنْ تَحذِيرِ زَوْجِهِ لَهُ، وَٱسْتَدْرَجَهُ ٱلصَّحَابَةُ بَعِيداً عَنِ ٱلْحِصْنِ، وَسَارُوا بِهِ مَسَافَةً يَتَحَدَّثُونَ مَعَهُ عَنْ نَوْعِيَّةِ ٱلرَّهَائِنِ، حَتَّىٰ ٱتَّفَقُوا عَلَىٰ رَهْنِ ٱلسِّلاَحِ. وَكَانَ كَعْبٌ مُتَعَطِّراً، فَقَالَ لَهُ أَبُو نَائِلَةَ: مَا أَجْمَلَ هَذِهِ ٱلرَّائِحَةَ! وَقَرَّبَ رَأْسَهُ مِنْهُ كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَزِيدَ مِنْ شَمِّ رَائِحَةِ ٱلْعِطْرِ، إلاَّ أَنَّهُ جَذَبَهُ مِنْ شَعْرِهِ، وَقَالَ لإِخْوَانِهِ: ٱضْرِبُوا عَدُوَّ ٱللهِ، وَعَمِلَتْ فِيهِ أَسْيَافُهُمْ، وَلٰكِنْ خَوْفاً عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ لَمْ يَسْقُطْ، إذ لَمْ تَنُشْهُ ٱلسُّيُوفُ، فَأَخْرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ سِكِّيناً، وَوَضَعَهَا فِي ثُنَّتِهِ[1]، وَتَحَامَلَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ وَصَلَتْ إلَىٰ عَانَتِهِ، فَوَقَعَ عَدُوُّ ٱللهِ، وَرَجَعَ ٱلصَّحَابَةُ إلَىٰ رَسُولِ ٱللهِ، وَأَخْبَرَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ أَنَّ كَعْبَ بْنَ ٱلأَشْرَفِ قَدْ قُتِلَ.

وَفِي ٱلسَّنَةِ ٱلثَّالِثَةِ مِنْ هِجْرَةِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ كَانَتْ غَزْوَةُ

---

(١) ٱلثُّنَّةُ: ٱلْعَانَةُ.

أُحُدٍ ٱلَّتِي أَرَادَتْ قُرَيْشٌ مِنْهَا أَنْ تَثْأَرَ لِنَفْسِهَا، فَأُصِيبَ فِيهَا ٱلْمُسْلِمُونَ، وَلَٰكِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ قُرَيْشٌ ٱلْوُصُولَ إِلَىٰ مَا أَرَادَتْ إِذْ بَقِيَتْ مَعْنَوِيَّاتُ ٱلْمُسْلِمِينَ عَالِيَةً، وَإِمْكَانَاتُهُمْ فِي مُتَابَعَةِ ٱلْقِتَالِ وَٱلذَّوْدِ عَنِ ٱلْمَدِينَةِ قَائِمَةً، وَسَقَطَ مِنْهُمْ عَدَدٌ مِنَ ٱلشُّهَدَاءِ ٱلْبَرَرَةِ. وَٱشْتَغَلَ ٱلْمُسْلِمُونَ إِثْرَ ٱلْمَعْرَكَةِ بِقَتْلاَهُمْ، وَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ: مَنْ رَجُلٌ يَنْظُرُ لِي مَا فَعَلَ سَعْدُ بْنُ ٱلرَّبِيعِ؟ أَفِي ٱلأَحْيَاءِ هُوَ أَمْ فِي ٱلأَمْوَاتِ؟ فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: أَنَا أَنْظُرُ إِلَيْكَ يَا رَسُولَ ٱللهِ مَا فَعَلَ سَعْدٌ. وَٱنْطَلَقَ فَنَظَرَ فَوَجَدَهُ جَرِيحاً فِي ٱلْقَتْلَىٰ وَبِهِ رَمَقٌ. فَقَالَ لَهُ: إِنَّ رَسُولَ ٱللهِ أَمَرَنِي أَنْظُرُ، أَفِي ٱلأَحْيَاءِ أَنْتَ أَمْ فِي ٱلأَمْوَاتِ؟ قَالَ: أَنَا فِي ٱلأَمْوَاتِ، فَأَبْلِغْ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ عَنِّي ٱلسَّلاَمَ، وَقُلْ لَهُ: إِنَّ سَعْدَ بْنَ ٱلرَّبِيعِ يَقُولُ لَكَ: جَزَاكَ ٱللهُ عَنَّا خَيْرَ مَا جَزَىٰ نَبِيّاً عَنْ أُمَّتِهِ، وَأَبْلِغْ قَوْمَكَ عَنِّي ٱلسَّلاَمَ، وَقُلْ لَهُمْ: إِنَّ سَعْدَ بْنَ ٱلرَّبِيعِ يَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لاَ عُذْرَ لَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ، إِنْ خُلِصَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ وَمِنْكُمْ عَيْنٌ تَطْرِفُ. وَلَمْ يَبْرَحْ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ حَتَّىٰ مَاتَ سَعْدُ بْنُ ٱلرَّبِيعِ.

وَبَعْدَ غَزْوَةِ أُحُدٍ سُرَّ ٱلْيَهُودُ فِي ٱلْمَدِينَةِ بِمَا أَصَابَ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَفَكَّرُوا بِٱلتَّخَلُّصِ مِنْهُمْ بَعْدَ أَنِ ٱسْتَضْعَفُوهُمْ

وَطَمِعُوا فِيهِمْ، لِذَا قَرَّرَ بَنُو ٱلنَّضِيرِ مِنْ يَهُودَ ٱغْتِيَالَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ، وَسَمَحَتْ لَهُمُ ٱلْفُرْصَةُ - حَسْبَ زَعْمِهِمْ - إِذْ زَارَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ دِيَارَهُمْ لِيَطْلُبَ مِنْهُمُ ٱلْمُشَارَكَةَ فِي دَفْعِ ٱلدِّيَةِ لِرَجُلَيْنِ قَتَلَهُمَا عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ ٱلضَّمْرِيُّ، وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ قَدْ أَعْطَاهُمَا عَهْداً. وَرَحَّبَ يَهُودُ بَنِي ٱلنَّضِيرِ بِرَسُولِ ٱللهِ، وَوَعَدُوهُ بِدَفْعِ مَا يُرِيدُ، وَمَكَثَ يَنْتَظِرُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ إِنْجَازَ مَا وَعَدَتْ يَهُودُ، وَقَدْ جَلَسُوا فِي ظِلِّ جِدَارٍ، فَقَرَّرَتْ يَهُودُ إِلْقَاءَ صَخْرَةٍ عَلَيْهِ، وَأُخْبِرَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ مِنَ ٱلسَّمَاءِ بِمَا هَمَّتْ بِهِ يَهُودُ، وَهٰذَا مَا جَعَلَهُ يَتْرُكُ مَكَانَهُ، وَيَرْجِعُ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ، وَتَبِعَهُ أَصْحَابُهُ. وَعَدَّ رَسُولُ ٱللهِ مَا هَمَّ بِهِ ٱلْيَهُودُ مِنَ ٱلْغَدْرِ نَقْضاً لِلْعَهْدِ لِذَا قَرَّرَ إِجْلاَءَهُمْ عَنِ ٱلْمَدِينَةِ، وَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ إِنْذَاراً حَمَلَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، إِذِ ٱسْتَدْعَاهُ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ وَقَالَ لَهُ: ٱذْهَبْ إِلَىٰ يَهُودِ بَنِي ٱلنَّضِيرِ، وَقُلْ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ ٱللهِ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ أَنِ ٱخْرُجُوا مِنْ بِلاَدِي، لَقَدْ نَقَضْتُمُ ٱلْعَهْدَ ٱلَّذِي جَعَلْتُ لَكُمْ بِمَا هَمَمْتُمْ بِهِ مِنَ ٱلْغَدْرِ، لَقَدْ أَجَّلْتُكُمْ عَشْراً فَمَنْ رُؤِيَ بَعْدَ ذٰلِكَ ضُرِبَتْ عُنُقُهُ. وَذَهَبَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يُنْكِرُوا مَا هَمُّوا بِهِ، وَٱنْهَارَتْ مَعْنَوِيَّاتُهُمْ، إِلاَّ أَنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ قَدْ طَلَبُوا مِنْهُمْ رَفْضَ ٱلإِنْذَارِ ٱلنَّبَوِيِّ، فَفَعَلُوا، فَسَارَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ

فَحَاصَرَهُمْ، وَضَعُفُوا بَعْدَ قَطْعِ نَخِيلِهِمْ، وَفَاوَضُوا رَسُولَ ٱللهِ فِي ٱلصُّلْحِ وَٱلْجَلاَءِ عَنِ ٱلْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ تَدَخَّلَ الْمُنَافِقُونَ فِي ٱلأَمْرِ وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ .

وَظَنَّتْ قُرَيْشٌ أَنَّ أَمْرَ ٱلْمُسْلِمِينَ قَدْ ضَعُفَ بَعْدَ غَزْوَةِ أُحُدٍ وَمَا تَلاَهَا فِي يَوْمِ ٱلرَّجِيعِ وَبِئْرِ مَعُونَةَ وَغَيْرِهَا، فَأَرَادَتْ قُرَيْشٌ أَنْ تَشُنَّ حَرْباً وَاسِعَةً تَقْضِي فِيهَا عَلَىٰ ٱلْمُسْلِمِينَ، فَحَزَّبَتِ ٱلأَحْزَابَ، وَجَمَعَتْ أَعْدَاءَ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي حِلْفٍ، وَمِنْهُمْ يَهُودُ بَنِي قُرَيْظَةَ ٱلَّذِينَ بَقُوا وَحْدَهُمْ فِي ٱلْمَدِينَةِ بَيْنَمَا أُجْلِيَتْ بَقِيَّةُ يَهُودَ لِتآمُرِهِمْ وَخِيَانَتِهِمْ، وَخَطَّطَ ٱلأَحْزَابُ وَمَكَرُوا، وَلٰكِنَّ ٱللهَ رَدَّ كَيْدَهُمْ فِي نَحْرِهِمْ، فَتَرَكُوا حِصَارَ ٱلْمَدِينَةِ، وَبَقِيَ بَنُو قُرَيْظَةَ فِي مَوَاقِعِهِمْ دَاخِلَهَا. فَسَارَ إِلَيْهِمُ ٱلْمُسْلِمُونَ وَحَاصَرُوهُمْ، وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ رَئِيساً لِلْحَرَسِ ٱلنَّبَوِيِّ، وَكَثِيراً مَا تَوَلَّىٰ هٰذِهِ ٱلْمُهِمَّةَ بَعْدَ أَنْ أُصِيبَ سَيِّدُ ٱلأَنْصَارِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فِي غَزْوَةِ ٱلأَحْزَابِ، وَقَدْ مَاتَ شَهِيداً إِثْرَ غَزْوَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ مُتَأَثِراً بِجِرَاحِهِ، وَغَالِباً مَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْمُهِمَّةُ فِي ٱلأَوْسِ، وَلاَ شَكَّ فَإِنَّ تَوَلِّيَ قِيَادَةِ ٱلْحَرَسِ ٱلنَّبَوِيِّ لَيَدُلُّ عَلَىٰ مَدَىٰ ثِقَةِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ بِهِ، وَثِقَتِهِ بِشَجَاعَتِهِ وَإِمْكَانَاتِهِ .

وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بِٱلرِّجَالِ وخِبْرَةٍ بِٱلْكِرَامِ ،وَقَدْ مَرَّ بِهِ عَمْرُو بْنُ سُعْدَىٰ ٱلْقُرَظِيُّ يَوْمَ نَزَلَ بَنُو قُرَيْظَةَ عَلَىٰ حُكْمِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: مَنْ هٰذَا؟ قَالَ: عَمْرُو بْنُ سُعْدَىٰ، وَكَانَ عَمْرٌو قَدْ أَبَىٰ أَنْ يَدْخُلَ مَعَ بَنِي قُرَيْظَةَ فِي غَدْرِهِمْ بِرَسُولِ ٱللهِ، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: ٱللهُمَّ لاَ تَحْرِمْنِي عَثَرَاتِ ٱلْكِرَامِ ، ثُمَّ خَلَّىٰ سَبِيلَهُ. وَلاَ شَكَّ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ لَتَدُلُّ عَلَىٰ مَدَىٰ تَقْدِيرِهِ لِعَمْرٍو ٱلَّذِي حَافَظَ عَلَىٰ ٱلْعَهْدِ وَرَفَضَ ٱلْغَدْرَ كَمَا فَعَلَ بَقِيَّةُ يَهُودَ.

وَكَانَتَ إِذَا ٱنْطَلَقَتْ سَرِيَّةٌ مِنَ ٱلسَّرَايَا إِلَىٰ جِهَةٍ مِنَ ٱلْجِهَاتِ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ ٱللهِ فِيهَا، أَعْطَىٰ قِيَادَتَهَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنَ ٱلْمَعْرُوفِينَ بِٱلشَّجَاعَةِ ٱلْمُتَمَيِّزِينَ بِٱلْعَبْقَرِيَّةِ ٱلْمَشْهُورِينَ بِٱلْقُدْرَةِ ٱلْعَسْكَرِيَّةِ وَٱلإِمْكَانَاتِ ٱلْحَرْبِيةِ، وَلَقَدْ تَوَلَّىٰ مُحَمَّدُ ٱبْنُ مَسْلَمَةَ قِيَادَةَ عَدَدٍ مِنْ هٰذِهِ السَّرَايَا ٱلَّتِي خَرَجَتْ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللهِ لإِعْلاَءِ كَلِمَةِ ٱللهِ.

فِي مَطْلَعِ ٱلسَّنَةِ ٱلسَّادِسَةِ لِلْهِجْرَةِ أَرْسَلَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ فِي ثَلاَثِينَ رَاكِباً لِشَنِّ غَارَةٍ عَلَىٰ بَنِي بَكْرِ بْنِ كِلاَبٍ، وَكَانُوا يَنْزِلُونَ شِمَالَ شَرْقِيِّ ٱلْمَدِينَةِ عَلَىٰ بُعْدِ ١٥٠ كيلو متراً مِنْهَا عَلَىٰ طَرِيقِ ٱلْبَصْرَةِ، فَسَارَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ

إِلَيْهِمْ، وَكَانَ يَكْمُنُ فِي ٱلنَّهَارِ، وَيَتَحَرَّكُ فِي ٱللَّيْلِ حَتَّىٰ ٱسْتَطَاعَ أَنْ يُبَاغِتَهُمْ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ عَشَرَةَ أَشْخَاصٍ، وَفَرَّ ٱلْبَاقُونَ، فَسَاقَ إِبلَ وشِيَاهَ ٱلْعَدُوِّ أَمَامَهُ، وَعَادَ بِسَرِيَّتِهِ دُونَ أَنْ يُصَابَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِأَذًى. وَأَثْنَاءَ طَرِيقِ ٱلْعَوْدَةِ ٱلْتَقَىٰ بِثُمَامَةَ ٱبْنِ أُثَالٍ ٱلْحَنَفِيِّ، أَحَدِ زُعَمَاءِ بَنِي حَنِيفَةَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ لاَ يَعْرِفُ ثُمَامَةَ، كَمَا لاَ يَعْرِفُهُ أَحَدٌ مِنْ سَرِيَّتِهِ، فَأَسَرَهُ، وَحَمَلَهُ مَعَهُ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ. فَلَمَّا سَارَ بِهِ إِلَىٰ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ عَرَفَهُ ٱلرَّسُولُ ٱلْكَرِيمُ، فَعَامَلَهُ مُعَامَلَةً طَيِّبَةً عَلَىٰ طَبِيعَةِ مُعَامَلَةِ رَسُولِ ٱللهِ لِلأَعْيَانِ وَٱلْكِرَامِ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ ٱلإِسْلاَمَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ، وَلٰكِنَّهُ رَفَضَهُ، فَأَطْلَقَ سَرَاحَهُ، فَسَارَ ثُمَامَةُ أَشْوَاطاً ثُمَّ رَجَعَ فَأَعْلَنَ إِسْلاَمَهُ بَعْدَ مَا رَأَىٰ مِنَ ٱلآيَاتِ مَا رَأَىٰ وَشَعَرَ بِٱلْمُعَامَلَةِ ٱلْكَرِيمَةِ إِذْ رَفَضَ أَنْ يَتَّبِعَ هَوَاهُ، وَيُصِرَّ عَلَىٰ رَأْيِهِ، وَيَسْتَكْبِرَ بِغَيْرِ حَقٍّ بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ لَهُ ٱلطَّرِيقُ ٱلْوَاضِحُ، وَظَهَرَ لَهُ ٱلْخَطُّ ٱلْمُسْتَقِيمُ، وَسَطَعَ أَمَامَهُ ٱلنُّورُ، وَسَارَ إِلَىٰ بِلاَدِهِ عَنْ طَرِيقِ مَكَّةَ، فَٱعْتَمَرَ وَأَشْهَرَ إِسْلاَمَهُ، وَأَغَاظَ قُرَيْشاً، وَأَرَادَتْ بِهِ كَيْداً فَهَدَّدَهَا بِقَطْعِ ٱلْمِيرَةِ عَنْهَا، وَكَادَ يَفْعَلُ لَوْلاَ تَدَخُّلُ رَسُولِ ٱللهِ صلى ٱلله عليهِ وسلم.

وَفِي ٱلسَّنَةِ ٱلسَّادِسَةِ نَفْسِهَا فِي شَهْرِ رَبِيعٍ ٱلأَوَّلِ أَرْسَلَ

رَسُولُ اللهِ ﷺ أَيْضاً مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ عَلَىٰ رَأْسِ عَشَرَةٍ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ (ذِي ٱلْقَصَّةِ) ٱلَّتِي تَقَعُ عَلَىٰ طَرِيقِ (ٱلرَّبَذَةِ) عَلَىٰ بُعْدِ ٣٧ كيلو متراً مِنْ ٱلْمَدِينَةِ لِتَأْدِيبِ أَهْلِهَا مِنْ بَنِي ثَعْلَبَةَ ٱلَّذِينَ كَانُوا يُرِيدُونَ ٱلْإِغَارَةَ عَلَىٰ إِبِلِ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱلَّتِي تَرْعَىٰ عَلَىٰ مَقْرُبَةٍ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ فِي مِنْطَقَةِ (ٱلْهَيْفَاءِ)، وَوَصَلَ خَبَرُ هٰذِهِ ٱلسَّرِيَّةِ إِلَىٰ أَعْدَاءِ ٱلْمُسْلِمِينَ، فَنَصَبُوا كَمِيناً لَهُمْ، وَنَامَ ٱلْمُسْلِمُونَ، وَلٰكِنْ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ شَعَرُوا بِٱلْهُجُومِ عَلَيْهِم، فَقُتِلَ ٱلْمُسْلِمُونَ جَمِيعاً مَا عَدَا أَمِيرَهُمْ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ ٱلَّذِي أَثْخَنَتْهُ الجِرَاحُ، وَظَنَّ ٱلْأَعْدَاءُ أَنَّهُ قُتِلَ، فَرَجَعَ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ، وَأَخْبَرَ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ بِمَا حَدَثَ، فَأَرْسَلَ إِلَىٰ ٱلْقَوْمِ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ ٱلْجَرَّاحِ لِيُؤَدِّبَ أَعْدَاءَ ٱللهِ، فَسَارَ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ فَوَلَّوْا هَارِبِينَ، وَقَدْ تَرَكُوا إِبِلَهُمْ، فَٱسْتَاقَهَا أَبُو عُبَيْدَةَ وَرَجَعَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ.

وَفِي ٱلسَّنَةِ ٱلسَّادِسَةِ نَفْسِهَا سَارَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ إِلَىٰ مَكَّةَ ٱلْمُكَرَّمَةِ لِيُؤَدِّيَ ٱلْعُمْرَةَ، وَكَانَ مَعَهُ أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ، إِلاَّ أَنَّ قُرَيْشاً وَقَفَتْ فِي وَجْهِهِمْ، وَحَالَتْ دُونَهُمْ وَٱلْبَيْتِ، وَجَرَىٰ صُلْحُ ٱلْحُدَيْبِيَةِ بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَقُرَيْشٍ. وَأَصْبَحَتِ ٱلْجَبْهَةُ ٱلْجَنُوبِيَّةُ لِلْمُسْلِمِينَ فِي وَقْتِ صُلْحٍ

وَمُهَادَنَةٍ، ٱلأَمْرُ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلْمُسْلِمِينَ يَتَّجِهُونَ إِلَىٰ ٱلْجِهَةِ ٱلشِّمَالِيَّةِ حَيْثُ يَتَجَمَّعُ ٱلْيَهُودُ فِي خَيْبَرَ وَ(فَدَكَ) وَ(تَيْمَاءَ) وَ(وَادِي ٱلْقُرَىٰ) وَمَنْ سَارَ إِلَيْهِمْ مِمَّنْ جَلاَ عَنِ ٱلْمَدِينَةِ مِنْ أَبْنَاءِ عَقِيدَتِهِمْ، كَمَا شَجَّعَ أُولَئِكَ ٱلأَعْدَاءُ ٱلأَعْرَابَ وَرِجَالَ ٱلْقَبَائِلِ ٱلَّتِي لاَ تَزَالُ عَلَىٰ وَثَنِيَّتِهَا وَشِرْكِهَا.

سَارَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ بِٱلْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ خَيْبَرَ فِي مَطْلَعِ ٱلسَّنَةِ ٱلسَّابِعَةِ، وَلَمْ يَقْبَلْ فِي حَمْلَتِهِ هٰذِهِ إِلاَّ مَنْ حَضَرَ ٱلْحُدَيْبِيَةَ، وَوَصَلَ ٱلْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ خَيْبَرَ ٱلَّتِي تَبْعُدُ حَوَالَيْ ١٦٠ كيلو متراً إِلَىٰ ٱلشِّمَالِ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ مَجْمُوعَةً مِنَ ٱلْحُصُونِ، وَقَدْ هُزِمَ ٱلْيَهُودُ، وَهَرَبُوا أَمَامَ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَدَخَلُوا ٱلْحِصْنَ، وَأَغْلَقُوا ٱلأَبْوَابَ، وَبَدَؤُوا بِرَمْيِ ٱلْمُسْلِمِينَ بِٱلْحِجَارَةِ مِنَ ٱلأَبْرَاجِ وَأَعَالِي ٱلْحِصْنِ، وَقَدْ ٱسْتُشْهِدَ مَحْمُودُ بْنُ مَسْلَمَةَ أَخُو مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ إِذْ أُلْقِيَ عَلَيْهِ حَجَرُ رَحًى، وَنَتِيجَةَ هٰذَا ٱلرَّمْيِ تَرَاجَعَ ٱلْمُسْلِمُونَ عَنِ ٱلْحِصْنِ، فَخَرَجَ ٱلْيَهُودُ مِنْهُ، وَقَاتَلُوا أَشَدَّ قِتَالٍ، وَتَتَرَّسَ ٱلْمُسْلِمُونَ عَنِ ٱلنَّبِيِّ وَذَادُوا عَنْهُ، وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فِي مُقَدَّمَةِ ٱلذَّائِدِينَ، وَٱسْتَمَرَّ ٱلْقِتَالُ حَتَّىٰ ٱلْمَسَاءِ حَيْثُ تَمَّ لَيْلاً تَغْيِيرُ مَقَرِّ قِيَادَةِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ، إِذْ بَعَثَ ٱلنَّبِيُّ ٱلْكَرِيمُ قَائِدَ حَرَسِهِ ٱلْخَاصِّ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ

لِيُفَتِشَ عَنْ مَقَرٍ جَدِيدٍ بِنَاءً عَلَىٰ رَأْيِ ٱلْحَبَابِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ، وَقَدْ وَجَدَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ مَقَرّاً مُنَاسِباً فِي وَادِي ٱلرَّجِيعِ يَتَّفِقُ وَٱلْمُواصَفَاتِ ٱلَّتِي قَدَّمَهَا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ.

وَلَمْ يَسْقُطْ هٰذَا ٱلْحِصْنُ وَهُوَ ٱلْحِصْنُ ٱلأَوَّلُ مِنْ حُصُونِ خَيْبَرَ حَتَّىٰ قُتِلَ قَادَةُ ٱلْمُدَافِعِينَ عَنْهُ وَهُمْ: (مَرْحَبٌ) وَأَخَوَاهُ (يَاسِرٌ) وَ(ٱلْحَارِثُ) وَقَادَةٌ آخَرُونَ، فَقَدْ قُتِلَ (ٱلْحَارِثُ)، ثُمَّ قُتِلَ (مَرْحَبٌ) عَلَىٰ يَدِ بَطَلِنَا مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ، إِذْ خَرَجَ (مَرْحَبٌ) يَطْلُبُ ٱلْمُبَارَزَةَ، وَهُوَ مِنْ أَشِدَّاءِ ٱلْيَهُودِ وَأَكْثَرِهِمْ شَجَاعَةً، فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ: مَنْ لِهٰذَا؟ فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: أَنَا لَهُ يَا رَسُولَ ٱللهِ، أَنَا وَٱللهِ ٱلْمَوْتُورُ الثَّائِرُ، قُتِلَ أَخِي بِٱلأَمْسِ، فَقَالَ لَهُ ٱلنَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلاَةُ وَٱلسَّلاَمُ: فَقُمْ إِلَيْهِ، ٱللَّهُمَّ أَعِنْهُ عَلَيْهِ. فَلَمَّا دَنَا أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ، دَخَلَتْ بَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ عُمَرِيَّةٌ (قَدِيمَةٌ) مِنْ شَجَرِ العُشَرِ، فَجَعَلَ أَحَدُهُمَا يَلُوذُ بِهَا مِنْ صَاحِبِهِ، كُلَّمَا لاَذَ بِهَا مِنْهُ ٱقْتَطَعَ صَاحِبُهُ بِسَيْفِهِ مَا دُونَهُ مِنْهَا، حَتَّىٰ بَرَزَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ، وَصَارَتْ بَيْنَهُمَا كَٱلرَّجُلِ ٱلْقَائِمِ مَا فِيهَا فَنَنٌ، وَهُنَا حَمَلَ ٱلْقَائِدُ (مَرحَبٌ) عَلَىٰ ٱبْنِ مَسْلَمَةَ فَأَهْوَىٰ إِلَيْهِ بِسَيْفِهِ فَٱتَّقَاهُ بِدَرَقَتِهِ، وَكَانَتْ مِنْ جِلْدٍ سَمِيكٍ فَوَقَعَ سَيْفُ (مَرْحَبِ) فِيهَا، فَعَضَّتْ بِهِ فَأَمْسَكَتْهُ،

وَهُنَا ضَرَبَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ حَتَّىٰ قَتَلَهُ.

وَيُرْوَىٰ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ لَمَّا بَرَزَ إِلَىٰ (مَرْحَبٍ) قَطَعَ رِجْلَيْهِ، وَبَعْدَ أَنْ طَرَحَهُ أَرْضاً، قَالَ لَهُ مَرْحَبٌ: أَجْهِزْ عَلَيَّ، فَقَالَ: لاَ، ذُقِ ٱلْمَوْتَ كَمَا ذَاقَهُ أَخِي مَحْمُودُ بْنُ مَسْلَمَةَ، فَمَرَّ بِهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَقَطَعَ رَأْسَهُ.

وَخَرَجَ (يَاسِرٌ) أَخُو (مَرْحَبٍ) ٱلثَّانِي فَتَصَدَّىٰ لَهُ ٱلزُّبَيْرُ ابْنُ ٱلْعَوَّامِ وَقَتَلَهُ، وَبَرَزَ قَائِدٌ رَابِعٌ يُدْعَىٰ (عَامِراً) فَقَتَلَهُ عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَخَرَجَ ٱلْقَائِدُ ٱلْخَامِسُ وَهُوَ (أُسَيْرٌ) فَخَرَجَ لَهُ قَائِدُنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَضَرَبَهُ ضَرْبَةً أَرْدَاهُ قَتِيلاً.

وَبَعْدَ مَقْتَلِ قَادَةِ ٱلْيَهُودِ ٱلْخَمْسَةِ ٱنْهَارَتْ مَعْنَوِيَّاتُ ٱلْيَهُودِ دَاخِلَ ٱلْحِصْنِ، وَشَدَّدَ ٱلْمُسْلِمُونَ هُجُومَهُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ ٱقْتَحَمُوهُ فَفَتَحُوهُ، وَهُوَ أَوَّلُ حُصُونِ خَيْبَرَ.

وَفَتَحَ ٱلْمُسْلِمُونَ ٱلْمَجْمُوعَةَ ٱلأُوْلَىٰ مِنَ ٱلْحُصُونِ فِي خَيْبَرَ، وَٱنْتَقَلُوا إِلَىٰ ٱلْمَجْمُوعَةِ ٱلثَّانِيَةِ، وَكَانَتْ تَحْتَ إِمْرَةِ آلِ أَبِي ٱلْحُقَيْقِ، وَصَمَدَتْ فِي بِدَايَةِ أَمْرِهَا، ثُمَّ ٱنْهَارَتِ ٱلْمَعْنَوِيَّاتُ، وَطَلَبَ ٱلْمُدَافِعُونَ ٱلصُّلْحَ، وَأُبْرِمَتِ ٱلاتِّفَاقِيَّةُ، وَوُقِّعَتْ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ، وَلٰكِنَّ أُمَرَاءَ ٱلْيَهُودِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ،

وَهُمْ كِنَانَةُ بْنُ أَبِي ٱلْحُقَيْقِ ، وَأَخُوهُ ٱلرَّبِيعُ بْنُ أَبِي ٱلْحُقَيْقِ قَدْ خَانُوا ٱلْعَهْدَ، وَنَكَثُوا بِٱلْوَعْدِ، وَرَفَضَ أَوَّلُهُمَا ٱلْإِدْلَاءَ بِمَكَانِ ٱلْكُنُوزِ كَذِباً وَخِيَانَةً، فَكَانَ أَنْ أُعْدِمَا، وَقَدْ أَمَرَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ أَنْ يَقْتُلَ كِنَانَةَ بْنَ أَبِي ٱلْحُقَيْقِ بِأَخِيهِ مَحْمُودِ بْنِ مَسْلَمَةَ، فَفَعَلَ.

وَأَتَمَّ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ فَتْحَ خَيْبَرَ وَبَقِيَّةِ مَعَاقِلِ يَهُودَ فِي (فَدَكَ) وَ(تَيْمَاءَ) وَ(وَادِي ٱلْقُرَىٰ) وَبِذَا قَضَىٰ عَلَىٰ ٱلْجَبْهَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ نِهَائِياً، وَٱنْتَهَىٰ دَوْرُ ٱلْيَهُودِ العَلَنِيُّ فِي مُحَارَبَةِ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي تِلْكَ ٱلْحِقْبَةِ مِنَ ٱلتَّارِيخِ عَلَىٰ حِينَ ٱسْتَمَرَّ ٱلدَّوْرُ ٱلسِّرِّيُّ وَٱلْمُمَوَّهُ.

وَبِنَاءً عَلَىٰ صُلْحِ ٱلْحُدَيْبِيَةِ سَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ عُمْرَةِ ٱلْقَضَاءِ فِي شَهْرِ ذِي ٱلْقَعْدَةِ مِنَ ٱلسَّنَةِ ٱلسَّابِعَةِ لِلْهِجْرَةِ، وَسَارَتْ أَمَامَهُ كَتِيبَةُ ٱلفُرْسَانِ ٱلَّتِي يَرْأَسُهَا مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَٱلَّتِي وَصَلَتْ إِلَىٰ (مَرِّٱلظَّهْرَانِ) (وَادِي فَاطِمَةَ) فَسَأَلَتْ قُرَيْشٌ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ عَنِ ٱلْخَبَرِ ـ وَقَدْ هَالَتْهَا ٱلْقُوَّةُ ـ فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سَيَكُونُ غَدَاةَ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ فِي (مَرِّٱلظَّهْرَانِ).

وَفُتِحَتْ مَكَّةُ في ٱلسَّنَةِ ٱلثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ، وَأَسْلَمَتْ قُرَيْشٌ، وَٱنْتَهَىٰ عِدَاؤُهَا، وَٱنْتَهَتْ جَبْهَةُ ٱلْجَنُوبِ، وَعَادَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ يَتَّجِهُ ثَانِيَةً نَحْوَ ٱلشِّمَالِ إِذْ بَدَأَ ٱلرُّومُ يَتَحَرَّشُونَ بِٱلْمُسْلِمِينَ، وَيُحَرِّضُونَ ٱلْعَرَبَ ٱلْمُتَنَصِّرَةَ لِلإِغَارَةِ عَلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ، وَبِذَا فُتِحَتْ جَبْهَةُ ٱلشِّمَالِ ثَانِيَةً، وَتَحَرَّكَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ إِلَىٰ (تَبُوكَ) في ٱلسَّنَةِ ٱلتَّاسِعَةِ لِلْهِجْرَةِ لِيُظْهِرَ قُوَّةَ ٱلْمُسْلِمِينَ أَمَامَ ٱلرُّومِ وَإِمْكَانِيَّةَ حَرَكَتِهِمْ، وَقُدْرَتَهُمْ عَلَىٰ ٱلْمُجَابَهَةِ، وَقَبْلَ سَيْرِهِ ﷺ أَصْدَرَ أَمْرَهُ بِتَعْيِينِ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ أَمِيراً عَلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ مُدَّةَ غِيَابِ ٱلرَّسُولِ ٱلْكَرِيمِ.

وَبَدَأَتْ وُفُودُ ٱلْقَبَائِلِ تَصِلُ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ ٱلْمُنَوَّرَةِ تُعْلِنُ ٱلإِسْلَامَ، وَتَدِينُ بِٱلطَّاعَةِ، وَمَنِ ٱسْتَمَرَّ في تَعَنُّتِهِ وَعَلَىٰ شِرْكِهِ وَوَثَنِيَّتِهِ أَرْسَلَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللهِ سَرَايَا تُخْضِعُهُ، وَكَانَ مِنْ هٰذِهِ ٱلسَّرَايَا سَرِيَّةُ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ٱلَّتِي سَارَ بِهَا إِلَىٰ (القُرطاء) مِنْ هَوَازِنَ.

وَٱسْتَمَرَّ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ طِيلَةَ حَيَاةِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ مِنَ ٱلصَّحَابَةِ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ لِوَاءَ ٱلإِسْلَامِ، وَيُدَافِعُونَ عَنْهُ، وَيَذُودُونَ عَنْ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ، وَيَحْرُسُونَهُ، وَتُوُفِّيَ رَسُولُ ٱللهِ وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ، وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ خَلِيفَةً

لِرَسُول ٱللهِ وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ مَعَهُ كَمَا كَانَ مَعَ رَسُولِ ٱللهِ صلى ٱللهُ عليهِ وسلم.

وَجَاءَ عَهْدُ عُمَرَ بْن ٱلْخَطَّاب رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَرَأَىٰ أَنْ يَبْقَىٰ كِبَارُ ٱلصَّحَابَةِ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱلْمُنَوَّرَةِيَسْتَشِيرُهُمْ فِي ٱلأُمُور، وَيُزَوِّدُونَهُ بِٱلآرَاءِ فَقَدْ كَفَاهُمْ جِهَادُهُمْ مَعَ رَسُول ٱللهِ ﷺ، وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ مِمَّنْ بَقِيَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لاَ يَخْرُجُ مِنْهَا إلاَّ بِأَمْرِ ٱلْخَلِيفَةِ، وَلأَمْرِ ٱلْخَلِيفَةِ، وَغَالِباً مَا كَانَ يَقُومُ بِدَوْر مُحَاسَبَةِ ٱلْوُلاَةِ وَٱلرِّجَال ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلأَمْصَار.

وَجَاءَتْ إِلَىٰ عُمَرَ بْن ٱلْخَطَّاب رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ شَكْوَىٰ عَلَىٰ سَعْدِ بْن أَبِي وَقَّاص رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ، وَهُوَ أَمِيرُ ٱلْعِرَاق، فَٱلرَّجُلُ لا يَخْلُو مِنْ خَصْمٍ، وَٱلنُّفُوسُ لَيْسَتْ كُلُّهَا عَلَىٰ دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلإِيْمَان، وَٱلْحَسَدُ مَوْجُودٌ فِي ٱلنَّفْس، وَلٰكِنْ لاَ بُدَّ مِنْ تَحْقِيق، فَٱلْحَقُّ فَوْقَ ٱلرِّجَال، وَٱلْعَدْلُ أَسَاسٌ فِي ٱلْحُكْم ٱلإِسْلاَمِيِّ، وَلٰكِنْ مَنْ يُحَقِّقُ مَعَ سَعْدٍ؟ وَسَعْدٌ مِنَ ٱلْعَشَرَةِ ٱلْمُبَشَّرِينَ بِٱلْجَنَّةِ، إلاَّ أَنَّ ٱلرِّجَالَ يُعْرَفُونَ بِٱلْحَقِّ، وَٱلصَّحَابَةُ فَوْقَ هٰذِهِ ٱلأُمُور، فَأَرْسَلَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ إِلَىٰ سَعْدٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمَا، وَأَرْسَلَ مَعَهُ

رسَالَةً، وَقَالَ لَهُ: ٱعْمِدْ إِلَىٰ ٱلْقَصْرِ حَتَّىٰ تَحرِقَ بَابَهُ، ثُمَّ ٱرْجِعْ عَوْدَكَ عَلَىٰ بَدْئِكَ. فَخَرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ حَتَّىٰ قَدِمَ ٱلْكُوفَة، فَٱشْتَرَىٰ حَطَباً.... ثُمَّ أَتَىٰ بِهِ إِلَىٰ ٱلْقَصْرِ، فَأَحْرَقَ ٱلْبَابَ، وَأُتِيَ سَعْدٌ فَأُخبرَ ٱلْخَبَرَ، فَقَالَ: هَذَا رَسُولٌ أُرسِلَ لِهٰذَا ٱلشَّأْن، وبَعَثَ لِينَظُرَ مَنْ هُوَ؟ فَإِذَا هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولاً أَن ٱدْخُلْ، فَأَبَىٰ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ سَعْدٌ، فَأَرَادَهُ عَلَىٰ ٱلدُّخُول وَٱلنُّزُول، فَأَبَىٰ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ نَفَقَةً فَلَمْ يَأْخُذْ...... ٱللهُ أَكْبَرُ مَا أَكْرَمَ هٰذِهِ ٱلنُّفُوسَ! ٱلأَمِيرُ يَخْرُجُ بِنَفْسِهِ لِمُقَابَلَةِ ٱلرَّسُول ..... وَٱلرَّسُولُ يَتَمَنَّعُ..... وَبَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْحُبِّ ٱلْقَوِيِّ ٱلَّذِي لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَصِفَهُ إِلاَّ أَنَّهُ حُبٌّ فِي ٱللهِ.

وَدَفَعَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ كِتَابَ عُمَرَ إِلَىٰ سَعْدٍ، وَفِيهِ: بَلَغَنِي أَنَّكَ بَنَيْتَ قَصْراً ٱتَّخَذْتَهُ حِصْناً، وَيُسَمَّىٰ قَصْرَ سَعْدٍ، وَجَعَلْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلنَّاسِ بَاباً، فَلَيْسَ بِقَصْرِكَ، وَلٰكِنْ قَصْرُ ٱلْخَبَال،[1] أَنْزِلْ مِنْهُ مَنْزِلاً مِمَّا يَلِي بُيُوتَ ٱلأَمْوَال وَأَغْلِقْهُ، وَلاَ تَجْعَلْ عَلَىٰ ٱلْقَصْرِ بَاباً تَمْنَعُ ٱلنَّاسَ مِنْ دُخُولِهِ وَتَنْفِيهِمْ بِهِ

---

(١) الخَبَالُ: النُّقْصَانُ ـ ٱلْهَلاَكُ ـ صَدِيدُ أَهْلِ ٱلنَّارِ.

عَنْ حُقُوقِهِمْ، لِيُوافِقُوا مَجْلِسَكَ وَمَخْرَجَكَ مِنْ دَارِكَ إِذَا خَرَجْتَ..... فَيَا شَتَّانَ مَا بَيْنَ ٱلأَمِيرِ ٱلْمُسْلِمِ ٱلَّذِي يَجِبُ أَلاَّ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلنَّاسِ حِجَابٌ، يَدْخُلُونَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَيَعْرِفُونَ سَاعَةَ دُخُولِهِ وَمَجْلِسَهُ وَخُرُوجَهُ، وَبَيْنَ ٱلْحُكَّامِ ٱلآخَرِينَ ٱلَّذِينَ يُحَاطُونَ بِسُورٍ مِنَ ٱلْجُنْدِ، وَلاَ يَعْرِفُ أَحَدٌ دُخُولَهُمْ وَطَرِيقَهُمْ.... وَحَلَفَ سَعْدٌ لِمُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ أَنَّهُ مَا قَالَ ٱلَّذِي قَالُوا. وَرَجَعَ ٱبْنُ مَسْلَمَةَ مِنْ فَوْرِهِ، حَتَّىٰ إِذَا دَنَا مِنَ ٱلْمَدِينَةِ فَنِيَ زَادُهُ، فَتَبَلَّغَ بِلِحَاءٍ مِنْ لِحَاءِ ٱلشَّجَرِ، وَأَقَاتَ نَفْسَهُ، فَقَدِمَ عَلَىٰ عُمَرَ وَقَدْ تَعِبَ وَهَزَلَ، فَأَخْبَرَهُ خَبَرَهُ كُلَّهُ، فَقَالَ: فَهَلاَّ قَبِلْتَ مِنْ سَعْدٍ! فَقَالَ: لَوْ أَرَدْتَ ذٰلِكَ كَتَبْتَ لِي بِهِ، أَوْ أَذِنْتَ لِي فِيهِ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ أَكْمَلَ ٱلرِّجَالِ رَأْياً مَنْ إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ عَهْدٌ مِنْ صَاحِبِهِ عَمِلَ بِٱلْحَزْمِ، أَوْ قَالَ بِهِ، وَلَمْ يَتَّكِلْ، فَأَخْبَرَهُ بِيَمِينِ سَعْدٍ وَقَوْلِهِ، فَصَدَّقَ سَعْداً، وَقَالَ: هُوَ أَصْدَقُ مِمَّا رُوِيَ عَلَيْهِ وَمَنْ أَبْلَغَنِي.

وَبَيْنَمَا كَانَ ٱلْمُسْلِمُونَ يَسْتَعِدُّونَ لِلْمَسِيرِ إِلَىٰ نَهَاوَنْدَ لِمُنَازَلَةِ ٱلْفُرْسِ هُنَاكَ حَيْثُ تَجَمَّعُوا بِهَا، إِذْ جَاءَتْ شَكْوَىٰ عَلَىٰ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ مِنَ ٱلْجَرَّاحِ بْنِ سِنَانَ ٱلأَسَدِيِّ، فَأَرْسَلَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ،

فَقَدِمَ ٱبْنُ مَسْلَمَةَ عَلَىٰ سَعْدٍ لِيَطُوفَ بِهِ فِي أَهْلِ ٱلْكُوفَةِ، وَٱلْبُعُوثُ تُضْرَبُ عَلَىٰ أَهْلِ ٱلأَمْصَارِ إِلَىٰ نَهَاوَنْدَ، فَطَوَّفَ بِهِ عَلَىٰ مَسَاجِدِ أَهْلِ ٱلْكُوفَةِ، لاَ يَتَعَرَّضُ لِلْمَسْأَلَةِ عَنْهُ فِي ٱلسِّرِّ، وَلَيْسَتِ ٱلْمَسْأَلَةُ فِي ٱلسِّرِ مِنْ شَأْنِهِمْ إِذْ ذَاك؛ وَكَانَ لاَ يَقِفُ عَلَىٰ مَسْجِدٍ فَيَسْأَلَهُمْ عَنْ سَعْدٍ إِلاَّ قَالُوا: لاَ نَعْلَمُ إِلاَّ خَيْراً، وَلاَ نَشْتَهِي بِهِ بَدِيلاً، وَلاَ نَقُولُ فِيهِ، وَلاَ نُعِينُ عَلَيْهِ، إِلاَّ مَنْ مَالأَ ٱلْجَرَّاحَ بْنَ سِنَانَ وَأَصْحَابَهُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَسْكُتُونَ وَلاَ يَقُولُونَ سُوءاً، وَلاَ يَسُوغُ لَهُمْ، وَيَتَعَمَّدُونَ تَرْكَ ٱلثَّنَاءِ، حَتَّىٰ ٱنْتَهَوا إِلَىٰ بَنِي عَبْسٍ، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: أَنْشُدُ بِٱللهِ رَجُلاً يَعْلَمُ حَقّاً إِلاَّ قَالَ! قَالَ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ: ٱللَّهُمَّ إِنْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّهُ لاَ يَقْسِمُ بِٱلسَّوِيَّةِ، وَلاَ يَعْدِلُ فِي ٱلرَّعِيَّةِ، وَلاَ يَغْزُو فِي ٱلسَّرِيَّةِ. فَقَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ: ٱللَّهُمَّ إِنْ كَانَ قَالَهَا كَاذِباً وَرِئَاءً وَسُمْعَةً فَأَعْمِ بَصَرَهُ، وَأَكْثِرْ عِيَالَهُ، وَعَرِّضْهُ لِمَضَلاَّتِ ٱلْفِتَنِ. فَعَمِيَ، وَٱجْتَمَعَ عِنْدَهُ عَشْرُ بَنَاتٍ، وَكَانَ يَسْمعُ بِخَبرِ ٱلْمَرْأَةِ فَيَأْتِيهَا حَتَّىٰ يَجُسَّهَا، فَإِذَا عُثِرَ عَلَيْهِ، قَالَ: دَعْوَةُ سَعْدٍ ٱلرَّجُلِ ٱلْمُبَارَكِ..... وَكَذَا نَفَذَتْ دَعْوَتُهُ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ تَكَلَّمَ عَنْهُ.

وَتُوُفِّيَ ٱلْخَلِيفَةُ عُمَرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَبُويِعَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ

رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ خَلِيفَةً فَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ بِجَانِبِهِ كَمَا كَانَ بَجانِبِ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلَّذِينَ سَبَقُوهُ، وَفِي أَوَاخِرِ خِلاَفَةِ سَيِّدِنَا عُثْمَانَ حَدَثَتِ ٱلْفِتْنَةُ ٱلْعَمْيَاءُ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ أَنْ يُرْسِلَ إِلَىٰ ٱلأَمْصَارِ رِجَالاً يَثِقُ بِهِمْ يَأْتُوهُ بِٱلْخَبَرِ فَدَعَا مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ مَعَ مَنْ دَعَا، وَأَرْسَلَهُ إِلَىٰ ٱلْكُوفَةِ، وَكَانَ أَنْ أَرْسَلَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ إِلَىٰ ٱلْبَصْرَةِ، وَعَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ إِلَىٰ مِصْرَ، وَعَبْدَ ٱللهِ بْنَ عُمَرَ إِلَىٰ ٱلشَّامِ وَرِجَالاً آخَرِينَ سِوَاهُمْ، وَرَجَعُوا جَمِيعاً وَلَمْ يُنْكِرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ شَيْئاً، وَلاَ أَنْكَرَهُ أَعْلاَمُ ٱلْمُسْلِمِينَ وَعَوَامُهُمْ.

وَوَقَفَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ مَعَ سَيِّدِنَا عُثْمَانَ أَثْنَاءَ ٱلْمِحْنَةِ ٱلَّتِي ٱبْتُلِيَ بِهَا، وَٱلْفِتْنَةِ ٱلَّتِي عَمَّتِ ٱلْمُسْلِمِينَ يَوْمَذَاكَ، وَنَافَحَ عَنِ ٱلْحَقِّ بِكُلِّ إِمْكَانَاتِهِ وَدَافَعَ عَنِ ٱلْخَلِيفَةِ بِكُلِّ طَاقَاتِهِ، حَتَّىٰ كَانَ أَمْرُ ٱللهِ وَقُتِلَ سَيِّدُنَا عُثْمَانُ مَظْلُوماً، وَمَضَىٰ شَهِيداً.

وَبَايَعَ ٱلنَّاسُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ بِإِمَارَةِ ٱلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ عَلَىٰ كُرْهٍ مِنْ ذٰلِكَ، وَلٰكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَسْتَتِبَّ ٱلْوَضْعُ فِي ٱلْمَدِينَةِ، وَيَهْدَأَ ٱلأَمْرُ ٱلَّذِي آلَتْ إِلَيْهِ ٱلْخِلاَفَةُ، وَلٰكِنَّ سَبْعَةً مِنْ كِبَارِ ٱلصَّحَابَةِ لَمْ يُبَايِعُوا وَهُمْ: سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَعَبْدُ ٱللهِ بْنُ

عُمَرَ، وَصُهَيْبٌ، وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَسَلَمَةُ بْنُ وَقْشٍ ، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ فِيمَا عَدَا ذَٰلِكَ، وَكَانَ لَهُمُ ٱجْتِهَادُهُمْ، وَلَهُمْ رَأْيُهُمْ، وَلَٰكِنَّهُمْ لَمْ يَطْعَنُوا فِي إِمَامَةِ عَلِيٍّ، وَلَمْ يَتَكَلَّمُوا عَنْهُ بِسُوءٍ ـ مَعَاذَ ٱللهِ ـ وَهُمْ أَدْرَىٰ ٱلنَّاسِ بِسَيِّدِنَا عَلِيّ وَدَوْرِهِ فِي ٱلإِسْلاَمِ .

وَبَقِيَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ حَتَّىٰ ٱنْتَهَتْ خِلاَفَةُ عَلِيٍّ وَبُويِعَ ٱلْحَسَنُ، وَتَنَازَلَ لِمُعَاوِيَةَ، وَٱجْتَمَعَتْ كَلِمَةُ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ كَانَتْ قَدِ ٱنْتَهَتِ ٱلْخِلاَفَةُ ٱلرَّاشِدَةُ، وَتُوُفِّيَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ عَامَ ٤٣هـ فِي ٱلْمَدِينَةِ .